القيم الحضارية في قصة سيدنا شعيب –عليه السلام – (دراسة قرآنية)

زكريا علي الخضر*

ملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان القيم الحضارية التي تضمنتها قصة سيدنا شعيب –عليه السلام– في القرآن الكريم.
وقد استعرض الباحث هذه القيم الحضارية المتعددة في المجال الاقتصادي والمجال الفكري والمجال الإنساني، وأوضح أثرها في بنية المجتمع، حيث ألمحت قصة سيدنا شعيب –عليه السلام– في القرآن الكريم إلى مجموعة من القضايا المهمة في حياة الفرد والمجتمع، ونبهت إلى مشكلات إنسانية وسلوكيات مختلفة، وقومت جوانب الخلل في هذه المشكلات والسلوكيات بما يرقى بالجانب القيمي والاجتماعي والإنساني.

الكلمات الدالة: القيم الحضارية، قصة شعيب –عليه السلام–، المفاهيم، القيم الاقتصادية، البناء الفكري.

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن القصص القرآني حافل بالمعاني العظيمة، والدلالات العميقة، فهو القصص الحق، وإن قصة سيدنا شعيب –عليه الصلاة والسلام– واحدة من هذه القصص، إذ فيها من القيم الحضارية والجوانب الاقتصادية والاجتماعية ما هو جدير بأن يكون نبراسا للإنسانية، ودروسا قيمة في البناء الفكري والإنساني والاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات.

وأعني بالقيم الحضارية مجموعة من المفاهيم والأخلاقيات والأسس التي تسهم في رقي الحضارة الإنسانية، وتؤدي إلى تميز المجتمع الإنساني على المستوى المادي والمعنوي.

وقد حاولت هذه الدراسة أن تكشف عن أبرز هذه القيم الحضارية، وأن تبين من خلال النظر والتأمل والدراسة المتأنية بعض المناحي والحيثيات، المتعلقة بالرقي الإنساني كقواعد سلوك ومناهج للتعامل المادي والمعنوي في أحوال الإنسان، في تبادلاته التجارية ومعاملاته المالية وأصول تجارته وبيعه وشرائه، والوقوف على قواعد تقويم الخلل المادي، والقواعد الرشيدة والمبادئ السديدة في التصرفات المالية.

وقد اتجهت الدراسة إلى بيان القيم الحضارية في حفظ الحقوق المادية والفكرية، وكشفت عن تقويم النظرة المادية المجردة غير المتوازنة، وتفعيل الجانب الإنساني في المفهوم الاقتصادي، وربطت بين مفهوم النظرة الإيمانية والنظرة المادية في الفكرة الاقتصادية.

وقد نبهت قصة سيدنا شعيب –عليه الصلاة والسلام – في القرآن الكريم على جانب تصحيح المفاهيم المخطوءة التي لم تقم على نظرة سوية للأشياء، وهذا يشكل بنية اجتماعية في حياة الإنسان، وأوقفت الإنسان على حدود المسؤولية الإنسانية إزاء مجتمعه، في إطار عمارة الكون وأداء الأمانة تجاه هذا الكون.

وقد ركزت القصة – فيما ركزت عليه من القيم الحضارية – على جانب الإصلاح في الأرض والنهي عن الفساد فيها، حيث رمزت إلى معاني الإصلاح وغايته ووسائله، وما يحتاج إليه من جهد وطاقة، يتكاتف من خلاله الفرد والمجتمع لتحقيقه وفق الاستطاعة والإمكانات والقدرات الإنسانية وفق الوقت المتاح لذلك.

وقد لفتت قصة سيدنا شعيب –عليه السلام– إلى جوانب فكرية عميقة؛ إذ أرشدت إلى حسن التعقل، وقراءة الواقع، والنظر إلى التاريخ، ووجهت إلى لون من ألوان احترام حرية الآخرين وحقوقهم الفكرية، ونبهت إلى عدم التعرض إلى طريق الخير وصد الناس عنه، ونبهت إلى سبل الإقناع وطرق النقاش، وتقبل الآراء، مبرزة قيمة الحوار ومهارات الاتصال وإقناع المخاطب وتجنب المغالطات في الحوار، ويجد الباحث

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/11/5، وتاريخ قبوله 2015/3/24.

© 2016 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

في هذه القصة حسن التنقل في الخطاب والارتقاء في أساليبه، وآداب البحث والمناظرة، والنظر في ما ينبغي مراعاته في ذلك، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في ثلاثة مباحث على نحو الآتي:

المبحث الأول: القيم الاقتصادية في حفظ حقوق المعاملات المالية وأثرها في بنية المجتمع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تقويم الخلل الاقتصادي.

المطلب الثاني: تفعيل الجانب الإيماني في المفهوم الاقتصادي.

المبحث الثاني: تصحيح المفاهيم وبيان المسؤولية في بناء المجتمعات، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تصحيح المفاهيم، وتقويم النظرة الاقتصادية والاجتماعية غير المتوازنة.

المطلب الثاني: بيان المسؤولية في تقدم المجتمع وإصلاحه.

المبحث الثالث:البناء الفكري للإنسان، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حسن التعقل والتبصر في الأحوال والواقع، وفهم التاريخ وحسن تحليله.

المطلب الثاني: احترام حقوق الآخرين الفكرية وحفظها.

ثم ختم البحث بخاتمة فيها أبرز نتائج البحث.

آمل أن أكون قد وفقت في ما قدمت من جهد، سائلاً الله –تعالى– التوفيق والرشاد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول
القيم الاقتصادية في حفظ حقوق المعاملات المالية وأثرها في بنية المجتمع

المطلب الأول: تقويم الخلل الاقتصادي

حين تطالع قصة سيدنا شعيب – عليه الصلاة والسلام – الواردة في سورة الأعراف وهود والشعراء، تجد أنها بعد التذكير بعبادة الله تعالى وحده، والدعوة إلى توحيده سبحانه تبدأ ببيان قضايا دقيقة ذات أثر كبير في بنية المجتمع؛ حيث تركز هذه القصة القرآنية الكريمة على مشكلات تتعلق بالجوانب الاقتصادية، وشؤون المعاملات المالية والمادية بين الناس، من البيع والشراء والكيل والميزان وما يتصل بها، وهي قضية مادية بحتة، وقد نبه سيدنا شعيب –عليه السلام – قومه عليها من جوانب متنوعة؛لخطورتها وانعكاساتها الإنسانية والاجتماعية، وما يرتبط بها من أمور تهم حياة الأفراد والمجتمع على حد سواء (والقضية التي كان يعالجها سيدنا شعيب –عليه السلام– في قومه مع قضية التوحيد من أكثر القضايا عسراً وصعوبة، إنها قضية المال الذي طبعت النفوس على حبه، لذلك نجد أن هذه القضية قد أخذت مساحة غير قليلة من دعوته، ومن هنا اشتد إنكارهم عليه، ونيلهم منه، فهم لا يفقهون ما يقول، كيف وقد أراد أن يقيدهم في التصرف بهذه الأموال حسب قواعد رشيدة، ومبادئ سديدة) (عباس، 1987).

وبالنظر إلى إرشادات سيدنا شعيب –عليه السلام – لقومه في شؤونهم المالية يلحظ عدة أمور:

أ– تنوع الأسلوب في الإرشاد والتوجيه وتقديم النصيحة في الشؤون المالية لقومه.

ب– يبرز لهم الخلل في تعاملاتهم المالية ويضع البديل الأنسب.

ج– يقدم لهم الحلول الأفضل بما لا يتقاطع مع أحوال معيشتهم، وبما لا يؤثر في ملكيتهم لأموالهم وفق قواعد سليمة في حفظ حقوقهم المالية.

د– يرشد إلى حفظ حقوق البائع والمشتري على حد سواء؛ حتى لا يقع الظلم وإنقاص الحقوق وهضمها؛ سعياً وراء إحداث التوازن الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع، وهذه الأمور نلحظها بوضوح في إرشاده –عليه السلام– لقومه المتمثل بما يلي:

1– إرشاده إلى الإيفاء بالكيل والميزان.
2– إرشاده إلى الإيفاء بالمكيال والميزان بالقسط.
3– إرشاده إلى عدم نقصان المكيال والميزان.
4– إرشاده إلى إيفاء الكيل وأن لا يكونوا من المخسرين.
5– إرشاده إلى أن يزنوا بالقسطاس المستقيم.
6– إرشاده إلى أن لا يبخسوا الناس أشياءهم.

وكما يظهر فإن هذه الإرشادات جاءت بقوالب متنوعة في الآيات، بما يفيد توكيد القضية، وبيان أهميتها وبعد أثرها في الحياة.

قال الله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ} (الأعراف: 85).

وقال الله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ } (هود: 85).

وقال الله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ {176} إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ {177} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {178} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ {179} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {180} أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

الْمُخْسِرِينَ {181} وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ {182} وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (الشعراء: 176– 183).

وقد جاءت إرشادات سيدنا شعيب –عليه السلام– لقومه في تقويم الخلل الاقتصادي من جهتين؛ الأولى: إرشادهم إلى الوفاء بالكيل والميزان وعدم إنقاصهما، وحفظ حقوق المشتري، و الثانية: الإرشاد إلى الابتعاد عن البخس، وحفظ حقوق البائع، وفيما يلي تفصيل وبيان لهذه الإرشادات الكريمة.

الفرع الأول: الوفاء بالكيل والميزان وعدم إنقاصهما وحفظ حقوق المشتري

في هذه الآيات تبرز قيمة إيفاء الكيل والوزن، وهي الشأن الأبرز في المبادلات التجارية والأصل بالنسبة لها، وهي دالة على حفظ حق المشتري، قال ابن عاشور: (فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حقوق المشترين؛ لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حب الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمن الشيء الوافي كما يحسبه المشتري) (ابن عاشور، 2000). وفي قوله تعالى: (فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ) (الأعراف: 85).

أمرهم بشيء خاص وهو إيفاء الكيل والميزان، ثم نهاهم عن شيء عام وهو قوله (أشياءهم).

والكيل إما أن يقصد به الآلة كقوله تعالى {أَوْفُواْ الْمَكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بالقسط} (هود: 85) (أبو السعود، 1994).

وإما أن يقصد به المصدرية وأن يراد بالميزان المصدر، وإما أن يكون هناك محذوف: أي ووزن الميزان (أبو حيان، 2001).

والأظهر– والله تعالى أعلم بمراده– أن الكيل يراد به المصدرية؛ على معنى طريقة الكيل وكيفيته، ليتوافق مع قوله تعالى {ويا قوم أَوْفُواْ الْمَكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} (هود:85)، وبذلك يجمعون في تعاملاهم المالية بين الوفاء بطريقة الكيل، والوفاء بآلة الكيل والوزن، فلا يحصل خلل من أي وجه من أوجه الابتياع.

والذي يبدو أن قوله تعالى: { وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} (هود:85) ليس تكرارا لقوله تعالى: { وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} (هود: 85)؛ بل هذا مبالغة في الأمر بهذا الموضوع –وفاء الكيل والميزان – وأن كل جانب مما أمرهم به أو نهاهم عنه إنما هو موضوع مستقل بذاته، له ما يرتبط به من تبعات، قال الزمخشري: (فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله: أوفوا؟ قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقصان المكيال والميزان؛ لأن في التقويم بالقبيح نعياً على المنهي، وتعييراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه؛ لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط: أي ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أن الموفي عليه أن ينوي الوفاء بالقسط؛ لأن الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد) (الزمخشري، 1997).

وقد بين الآلوسي أن الفائدة في الأمر بالإيفاء هو المبالغة في الترغيب، وأنه هو المطلوب أصالة وتبعا، والمبالغة في الحمل على الإيفاء والمنع والبخس، وأنه لا يكفي مجرد الكف عن النقص والبخس؛ بل لا بد من إصلاح ما أفسدوه (الآلوسي، 2005).

وبالنظر إلى موضوع الإيفاء بالكيل والميزان، نجد أن التوجيهات القرآنية في أكثر من موضع في القرآن جعلته قيمة أساسية في الحياة، وهو رمز للعدل في الأرض، قال تعالى: {وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن: 7–9).

ونلحظ هنا مقابلة بين طرفين ووسط: إفراط ووسط وتفريط، (ولا تخسروا الميزان) هذا هو النهي عن التفريط بالإنقاص في الميزان، وقد أراد الله – تعالى– للنِّسب في الحياة أن تكون متوازنة متكافئة متوافقة في وجودها: قال الله تعالى:{وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ }(الحجر:19)، فالطغيان " تجاوز الحد في الشيء" (السمين، 1993)، وهذا ضرر، وهو زيادة على الاستحقاق، وإسراف في وضع الشيء في غير موضعه، وإذهاب به عن قدر الحاجة، وهذا فساد؛ لأنه يؤدي إلى إنقاص حقوق الآخرين.

والخسر: فيه النقصان وعدم استيفاء الحقوق، قال الراغب الأصفهاني: (الخسر والخسران: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته) (الراغب، 2004).

الفرع الثاني:الجانب المعنوي في الوفاء بالكيل والميزان

لما كان المطلوب الاتزان والقصد في الأمور كلها، أمر الله – تعالى – بإقامة الوزن على ما يقتضيه العدل والحق، وهذا ينسحب على المكاييل والمقادير والأقوال والأفعال، وقد أرشد القرآن إلى ذلك، حيث قال الله تعالى: {وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} (الإسراء: 35) وهنا القسطاس المستقيم يكون به الوزن والمكيال، وتستقيم به أحوال البيع والشراء وأموره، وهناك

قسطاس مستقيم معنوي تتزن به الأفعال والأقوال، وتستقيم به الكلمة، وتتوجه به أحوال الإنسان المعنوية، فيحصل له اتزان من الجانب المادي والجانب المعنوي، ومنه قوله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ } (الأنعام: 152).

وهنا يتجه سؤال: في آيات سورة الرحمن نهى الله – تعالى– عن الطغيان في الوزن أولاً، ثم نبه إلى إقامة الوزن بالقسط، ثم نهى عن الخسران في الوزن، إلا أنه في سورة الشعراء أمر بإيفاء الكيل وعدم الخسران، ثم نبه إلى الوزن بالقسطاس المستقيم، ثم نهى عن بخس الناس أشياءهم: قال الله تعالى: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ.وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ.وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (الشعراء: 181– 183) فما السر في ذلك؟

(والجواب: أن الأمر في سورة الرحمن عام لجميع الخلق، فقدم النهي عن الطغيان في الوزن؛ لينبه على أن الأصل أن يكون الميزان على المقدار فلا يزاد عليه.

أما في سورة الشعراء، فالخطاب إلى قوم بعينهم – وهم قوم شعيب عليه السلام – حيث كان من شأنهم عدم الوفاء بالكيل بإنقاصه، فقدم الأهم والمناسب لأحوالهم، فأمرهم بما هو أهم وأولى لهم، وهو الوفاء بعدم الإنقاص والإخسار، ثم وجههم إلى الطريقة المثلى لضبط ذلك وهي: الوزن بالقسطاس المستقيم، ثم ذكر عيباً من عيوبهم وهو الغض من قيمة الشيء بالغبن (ولاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ)؛ لأن هذا إفساد في الأرض (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الخضر، 2011م).

الفرع الثالث: الابتعاد عن البخس وحفظ حقوق البائع

قال الله تعالى: {وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ}(الأعراف: 85) (هود: 85) (الشعراء: 183).

في هذه الآية نهي عام شامل عن البخس بأشكاله وصوره المتعددة، وقد جاء هذا النهي على وجه العموم (أشياءهم)، وفي موضع آخر في حقوق الدين قال الله تعالى: {وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا} (البقرة: 282).

والبخس في أصله اللغوي: نقصان الحق (ابن سيده، 1996)، وهو نقص بالظلم.

وقد بنى ابن العربي على هذا الأصل اللغوي حيث بين أن البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه (ابن العربي، 2008).

صور البخس:

وعلى هذا فإن صور البخس المادية كثيرة ومتنوعة، وهي تلحق ضرراً بالسلعة والمبيع أياً كان نوعه وثقله، وتؤثر في ثمنه وقيمته المادية والمعنوية، ويلحظ أن النهي أولا يتناول البخس في الكيل والوزن، ثم يشمل جميع أوجه البخس والنقص، وقد ألمح الرازي إلى هذا المعنى؛ حيث أشار إلى أنه يدخل فيه المنع من الغصب والسرقة وأخذ الرشوة وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل) (الرازي، 1981).

ويفهم من كلمة (أشياءهم) في هذه الآية الكريمة أن هذه الأموال والأشياء ملك للناس، وحق خاص بهم لا ينبغي الاعتداء عليه؛ إذ في إضافة الأشياء إلى الناس دليل على ملكهم إياها (أبو حيان، 2001).

والأثر الذي يتركه البخس في الأشياء أثر سلبي، فهو أثر اقتصادي ونفسي معاً، وثمة صور لهذا الأثر السلبي والضرر الاقتصادي الناجم عن البخس في السلع، منها: (أن ينتفع الباخس الراغب في السلعة المبخوسة بأن يصرف الناس عن الرغبة فيها، فتبقى كلاً على جالبها، فيضطر إلى بيعها بثمن زهيد، وقد يقصد منه إلقاء الشك في السلعة؛ بأن سعلته هي دون ما هو رائج بين الناس، فيدخله اليأس من فوائد نتاجه فتكسل الهمم (ابن عاشور، 2000).

ولا يعد البخس من أخلاقيات المعاملات المالية السوية، بل هذا يتصادم مع شعور الإنسان مع أخيه الإنسان، ويتقاطع مع الإنسانية في أبعادها المرتكزة على التراحم، وبتأمل هذه الجملة القرآنية (وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ) (الشعراء:182) يلحظ فيها التعبير بمفهوم الإنسانية وعنوانها الناس، وهو مأخوذ من الإنسان كما هو معلوم في لسان العرب، وكيف يأنس الإنسان بأخيه الإنسان وهو يقوم بهضم حقه ونقصه بالظلم، وليس له غنى عنه في معيشته وتدبير أحواله؟!

اتساع مدلول البخس:

وإذا ما دققنا النظر في مصطلح البخس نجد أنه تتسع دلالته اتساعاً كبيراً ليدخل حيز المعنويات التي لا تقاس وفق الماديات، ويتخطى حاجز الماديات، ومن هنا فإن (البخس هو النقص في كل الأشياء) (الرازي، 1981). ومن هنا تتضح قيمة النهي عن البخس بصيغة العموم، وقد عد محمد رشيد رضا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل من جملة ما يتناوله النهي عن البخس في قوله تعالى (وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ) (رضا، 2002).

واللافت للنظر أن هذا التوجيه القرآني لا يريد للحياة أن تسير وفق الأمور المادية المجردة بعيدة عن منزعها الإنساني والاجتماعي، بل يزاوج بين النظرة المادية والنظرة المعنوية في تقدير الأمور، وهذا سيتضح في المطلب الثاني من هذا البحث.

وهذه الإرشادات القرآنية في تقويم الخلل الاقتصادي هي القواعد التي تحفظ سلامة التعامل بين الناس، والمسائل الي بينتها قصة سيدنا شعيب –عليه السلام– في القرآن الكريم فيما يتصل بالأمور المالية(إنما هي نماذج للتعامل تستطيع القياس عليها في كل أمور الحياة، فيما يقاس وفيما يعد في الأعمال وفي الصناعات) (الشعراوي، 1991).

المطلب الثاني: تفعيل الجانب الإيماني في المفهوم الاقتصادي

نوهت قصة سيدنا شعيب –عليه السلام – في القرآن الكريم بأهمية الجانب الإيماني في الفكرة الاقتصادية، وربطت بين مفهوم النظرة الإيمانية والنظرة المادية في القيم الاقتصادية، وبتدقيق النظر في إرشادات سيدنا شعيب –عليه السلام – لقومه في حيز المعاملات المالية، يظهر الجانب الإيماني والمفهوم القيمي الإنساني على النحو الآتي:

أ– التنبيه إلى الاقتناع بالرزق الحلال الذي يتحصل بإيفاء الكيل والوزن.

ب– تفعيل جانب الرقابة الذاتية والوازع النفسي.

ج– الحرص والشفقة على قومه من خلال إخلاص النصح لهم، بتقديم الحلول الأفضل في التعاملات المالية وحفظ حقوق الآخرين.

يقول الله تعالى: { وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ }(هود:84)ويقول الله تعالى: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}(هود: 86)، وهذا بيان وتفصيل لأهمية الجانب الإيماني في الفكرة الاقتصادية والنظرة المادية من خلال هذه الآيات الكريمة.

الفرع الأول: التنبيه إلى الاقتناع بالرزق الحلال الذي يتحصل بإيفاء الكيل والوزن

قال الله تعالى: {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ }(هود:84) يشعر سيدنا شعيب–عليه السلام– قومه هنا بحرصه الشديد على أن يبدل قومه طرقهم في التعاملات التجارية إلى ما ينقذهم من الوقوع في المهالك، ومعنى (إني أراكم بخير): (رخص الأسعار وكثرة الأرزاق) (ابن جزي، 1973).

وقد يكون المعنى (بسعة ونعمة فلا تزيلوها بما أنتم عليه، فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها) (ابن عجيبة، 2002). وقد يكون المعنى (نعمة تغنيكم عن التطفيف) (السيوطي، 1995).

ولعل الأمر أعم من ذلك؛ فيشمل النعم الكثيرة؛ إذ كانوا في خصب وسعة، فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء الأسعار، وحلول النقمة إن لم يؤمنوا ويتوبوا (الشربيني، 2004).

والحاصل أنهم في ثروة وسعة في الرزق تمنعهم من النقص في المكيال وبخس الناس أشياءهم، والأصل أن يزدادوا من القناعة لا أن ينقصوا الناس حقوقهم، وعلى هذا (فالجملة تعليل للنهي عن النقصان) (رضا، 2002).

وحتى يترسخ في الأذهان أهمية الاقتناع بالرزق الحلال، وترغب النفس في الإقلاع عن المنهي عنه، يقدم سيدنا شعيب –عليه السلام– الأمر مرة أخرى بقالب آخر يشير إليه القرآن {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }(هود: 86) والمعنى (ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف، يعني المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريقة البخس والتطفيف) (الرازي، 1981، وينظر: الطبري، 2000).

وهنا يبصر سيدنا شعيب – عليه السلام– قومه مبينا خطر ما هم عليه من شر محض؛ فإن المال المكتسب من البخس وعدم الوفاء بالكيل والميزان هباء منثور، بل شر محض وإن ظنوا أن فيه خيراً، وهو عرضة للذهاب والزوال كما جاء في قوله تعالى: { يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} (البقرة: 276). (أبو السعود، 1994).

وقد ربط سيدنا شعيب –عليه السلام– الرزق الحلال من إيفاء الكيل والميزان بمفهوم الإيمان؛ ولفظ (بقية) لفظ يرغب في الإرشاد والعمل الذي يحث عليه سيدنا شعيب –عليه السلام– قومه، وهي كلمة جامعة لمعان كثيرة في كلام العرب، (منها: الدوام، وتشعر أيضا بعدم الزوال، والمعنى الذي تشير إليه هذه الكلمة أن ما يتحصل لقوم شعيب–عليه السلام– من الكسب بإنقاص الكيل والميزان والبخس متاع زائل، وأن ما دعاهم إليه سيدنا –شعيب– عليه السلام– باق في الدنيا والآخرة، فأما بقاؤه في الدنيا؛ فلأنه من كسب شرعي، فلا تتنازع الناس في حقوقها، ولأن انتزاع الأموال بغير وجهها يؤدي إلى الابتزاز وإلى زوال هذه الأموال، مما يفضي إلى تسليط عقاب الله –تعالى– بسلبها من أصحابها، وأما بقاؤه في الآخرة؛ فلأن ذلك مرتبط بالجزاء، قال الله –تعالى– {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا }(مريم:76) (ابن عاشور، 2000).

الفرع الثاني: تفعيل جانب الرقابة الذاتية والوازع النفسي

ربط سيدنا شعيب –عليه السلام – جانب القناعة بالرزق الحلال والكف عن المعاملات التجارية المغشوشة والتحايلات المالية بجانب الإيمان والرقابة الذاتية التي يحكمها الإيمان

والوازع النفسي اليقظ، قال الله تعالى: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}(هود: 86).

فالرقابة الذاتية سلوك تتجلى فيه الأمانة، وتتبدى فيه الصحة النفسية، وينضبط على وفقه العمل، فقوله تعالى: {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ } فيه إشعار بمستوى المسؤولية الإنسانية والاجتماعية، وفيه يظهر مقدار تشبع النفس بالإيمان وتقدير الأمور على وفقه.

قال الطبري: ({وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ } يقول: وما أنا عليكم أيها الناس برقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم، هل توفون الناس حقوقهم أو تظلمونهم؟ وإنما علي أن أبلغكم رسالة ربي، فقد أبلغتكموها) (الطبري، 2000، وينظر: القرطبي، 1966).

(ومثل هذا الأسلوب يشعر بخطورة الأمر، وبثقل التبعة، ويقفهم وجهاً لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ) (قطب، 1971)، وعلى هذا فالرقابة الذاتية تسهم في ظهور الارتياح في إجراء المعاملات والطمأنينة إلى عمل التاجر والموظف والإداري والصانع وطالب العلم وغيرهم، بحيث يأمن الإنسان على أن مصالحه تقضى على أفضل ما يكون، وفق قواعد رشيدة في التعامل، وهذا ينسحب على الأعمال المتعلقة بالمعاملات المالية وغيرها من التصرفات والحقوق الإنسانية.

المبحث الثاني

تصحيح المفاهيم، وبيان المسؤولية في بناء المجتمعات

هناك مفاهيم مخطوءة لم تقم على نظرة صحيحة سوية للأشياء عمل سيدنا شعيب – عليه السلام – على تصحيحها وتقويمها، وقد ركز القرآن عليها لكونها أساسا من أسس المجتمع، وقد لفت القرآن النظر إلى حدود المسؤولية الإنسانية في بناء مجتمعه والإسهام في رفعته وتقدمه، وعد ذلك من عمارة الأرض، وأداء الأمانة تجاه هذا الكون، وهذا بيان لهذه القيم الرفيعة.

المطلب الأول: تصحيح المفاهيم وتقويم النظرة الاقتصادية والاجتماعية غير المتوازنة

الفرع الأول: تصحيح المفهوم المخطوء في عدم وجود الضوابط الخلقية في مطلق التصرف في المال

قال الله تعالى: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ }(هود: 87– 88).

في هاتين الآيتين يظهر مفهوم مخطوء لقوم شعيب–عليه السلام–، ويظهر تصحيح لهذا المفهوم من قبل سيدنا شعيب – عليه السلام–، فمفهومهم المخطوء عبر عنه قوله تعالى: { أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ }، ومعنى هذا أنهم ظنوا أن لهم حرية التصرف في المال جمعاً وكسباً وتصريفاً، على ما يختارون من الطرق أياً كانت دون ضوابط أو قواعد أخلاقية أو سلوك، وأن العنان مطلق لحريتهم الشخصية في أن يصنعوا ما يشاءون دون أي رقابة، وأن ذلك – في أذهانهم– لا عاقبة له ولا أثر، والصواب أن تصرفهم هذا صدر عن أنانية في نفوسهم، وعدم روية في التفكير ونظر في الأحوال، وهذا تعبير عن الأثرة وحب الذات، وسيطرة الفكرة الاقتصادية البحتة التي لا تقيم وزناً للقيم، ولا تحسب للبصيرة الإنسانية حساباً ما.

قال الشعراوي: (وكأنهم قد عميت بصيرتهم؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون، فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون وستصطدم المصالح، ويخسر الجميع) (الشعراوي، 1991).

وإن ما دعاهم إليه سيدنا شعيب – عليه السلام – ليس فيه حجر على حريتهم أو حد لذكائهم؛ إنما هو إرشاد لاستغلال الأموال بما يحفظ حقوق الآخرين ولا يشكل اعتداء عليها، والقيمة الكبيرة هنا: أن تقف حرية الإنسان عند حدود حرية غيره، أو كما يقال: تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين.

وليس ما دعا إليه –عليه السلام – فيه حد من العطاء والنماء؛ بل هو العطاء والنماء بحكمة، وهو مقتضى الرشد والتعقل والتبصر وفق هدي الإيمان، وتفعيل الوجدان والوازع النفسي اليقظ، وهذا يجعل الاستثمار مجدياً، ويعطيه ديمومة وقوة؛ لأنه يقوم على تصريف المال والتصرف به على الوجه اللائق، لا التحكم بالأموال وانتزاعها بطرق التحايل.

تصحيح المفهوم قائم على العلم والبينة:

ولتصحيح المفهوم وتقويم النظرة المخطوءة لقوم شعيب – عليه السلام – يبين سيدنا شعيب – عليه السلام – أن ما أرشدهم إليه قائم على علم وبينة، فهو لا يقول كلاماً نظرياً مجردا لا أثر له في الواقع، بل إن إرشاده هذا من مقتضى الحلم والرشد، ويلفت نظرهم إلى أن ما أعطاه الله – تعالى – إياه هو الرزق الحسن، وأن ما هم عليه ليس من باب الرزق الحسن، قال الله تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ } (هود: 88).

وقد قدم سيدنا شعيب –عليه السلام– من نفسه لقومه

أنموذجا في الكسب الحلال، وأوضح لهم أن البركة في الرزق والطمأنينة فيه هو الذي ينبغي أن يتوخى في الكيل والوزن، ومعنى (رزقني منه رزقاً حسناً) (في كثرته وصفته، وهو كسبه بالحلال بدون تطفيف مكيال ولا ميزان، ولا بخس لحق أحد من الناس، فسيدنا شعيب –عليه السلام– مجرب في الكسب الطيب وما فيه من خير وبركة) (رضا، 2002).

وعلى هذا فالرزق الحسن ليس هو مطلق التصرف في المال كيفما اتفق تطفيفاً وبخساً ونقصاً لأموال الآخرين وحقوقهم.

الفرع الثاني: تقويم النظرة الاقتصادية والاجتماعية غير المتوازنة

مما أخطأ فيه قوم شعيب – عليه السلام – في نظرتهم ومفهومهم للأمور أنهم يحسبون الحياة بمنطق القوة ومنطق الربح والخسارة، فأما المنطق الأول: فقد عبر عنه قوله تعالى: { قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } (هود: 92)

وأما المنطق الثاني: فقد عبر عنه القرآن في قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ } (الأعراف:90)، وقد جاء تصحيح المفهوم بقوله تعالى: { الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ }(الأعراف: 92).

قال الزمخشري: (وإنما قالوا: ولولاهم احتراماً لهم واعتداداً بهم، لأنهم كانوا على ملتهم لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم (لرجمناك) لقتلناك شر قتلة (وما أنت علينا بعزيز) أي لا تعز علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك من الرجم، وإنما يعز علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا) (الزمخشري، 1997).

وقد كان جوابه عليه السلام:{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا}، وفي هذا الجواب تصحيح للمفهوم المخطوء الذي صدر من قوم شعيب– عليه السلام–؛ إذ عز عليهم رهطه، ولكنهم لم يعز عليهم الله تعالى، فذكرهم بذلك، وبين لهم أن تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله تعالى، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله (الزمخشري، 1997). وكان الأولى أن يعز عليهم الله تعالى (والمعنى: أرهطي أعز عليكم من الله، فإنه مما لا يكاد يصح والحال أنكم لم تجعلوا له تعالى حظاً من العزة أصلاً) (أبو السعود، 1994).

فوائد من جواب سيدنا شعيب – عليه السلام– لقومه:

ويفهم من هذا الجواب { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا} أن منطق القوة والعصبية اللذين يكونان في غير موضعهما نوع من أنواع الجهل، وما أشبه هذا الموقف بموقف قوم هود–عليه السلام – حين قالوا فيما عبر عنه القرآن: { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}(فصلت: 15) وكان الجواب: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} (فصلت: 15).

ويلحظ في جواب سيدنا شعيب –عليه السلام– منطق الحكمة أمام القوة، والعقل أمام الاندفاع، وأنه يحتمي بالله العزيز القوي، وأنه قوي بربه –سبحانه–، ويستمد منه القوة، وهو ليس ضعيفاً كما يدعون، وقد طلب منهم أن يعملوا على مكانتهم. { وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } (هود: 93).

(وفي هذا تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه – عليه السلام –، وفي نسبته إلى الضعف والهوان، وفي ادعائهم الإبقاء عليه لرعاية جانب الرهط) (الألوسي، 2005).

مفهوم مخطوء لقوم سيدنا شعيب–عليه السلام– في الربح والخسارة:

والذي يظهر أن منطق قوم شعيب– عليه السلام – وهو أنهم راعوا سيدنا شعيباً–عليه السلام– لأجل عشيرته وقبيلته، ولم يقيموا له احتراماً لذاته أو لدينه، كان من تبعات النظرة المادية التي تحسب حساباً للمصالح والعلاقات المادية، وتقيس وفق مقياس الربح والخسارة، ويتأكد هذا حين قال الذين كفروا من قوم شعيب – عليه السلام – فيما عبر عنه القرآن: { وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ} (الأعراف: 90).

ويفهم من هذا: أن الاتجاه المادي والإغراق في النظرة الاقتصادية للأشياء عندهم جعلتهم لا يملكون إلا هذا المقياس، ولا يرون إلا بمنظاره، ولا يتحدثون إلا بمنطقه، ومعنى (إنكم إذاً لخاسرون) أي: مغبونون لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف) (الشربيني، 2004، وينظر: الرازي، 1981، أبو حيان، 2001).

ولا شك أن هذا انحراف في التصور والفكر، قال الشعراوي: (وماذا يخسرون؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حيث يطففون الكيل ويخسرون الميزان، والقوي يأخذ من الضعيف، فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران بمنهج، وهذه هي

الخسارة في نظر المنحرف) (الشعراوي، 1991).

وقد ذهب ابن عاشور إلى أن المراد الخسران الأعم، ولكن الأهم عندهم هو الدنيوي (ابن عاشور، 2000).

تصحيح سيدنا شعيب –عليه السلام– لمفهوم قومه المخطوء في الربح والخسارة:

وتصحيحاً لهذه النظرة المخطوءة لهم يعقب القرآن على ذلك، بعد أن بين عاقبة الذين كفروا من قوم شعيب –عليه السلام–: { الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ } (الأعراف: 92).

فالخسارة الحقيقية هي خسارة النفس، وليس خسارة المال والتجارة، فهؤلاء خسروا الدنيا والآخرة، وهذا هو الخسران المبين، وهذا ما كان يحذر منه القرآن في أكثر من موضع: { الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } (الأنعام: 12، 20)، { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} (الأنعام: 31) { وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}(الحج: 11) {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } (الزمر: 15). { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ }(البقرة: 16).

وعلى هذا فمصطلح الربح والخسارة المادية الصرفة إذا أسقطت منه الحسابات الإنسانية، وجرد من القيم، لا يكون في خدمة البشرية أو صالح الإنسانية.

المطلب الثاني: بيان المسؤولية في تقدم المجتمع وإصلاحه

قال الله تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} (الأعراف: 85).

وقال الله تعالى: { وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ }(هود: 85)

وقال الله تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }(هود: 88).

في هذه الآيات الكريمة يوجه سيدنا شعيب –عليه السلام – قومه إلى المسؤولية الإنسانية للفرد والمجتمع إزاء عمارة الكون، والتعامل مع مقدراته، وإلى الإصلاح فيه، والعمل لخير المجتمعات، وفي ما يلي بيان لتوجيهات سيدنا شعيب–عليه السلام– وإرشاداته لقومه في هذه الجوانب:

الفرع الأول: النهي عن الإفساد في الأرض

يلفت سيدنا شعيب –عليه السلام– أنظار قومه أولاً إلى عدم الإفساد في الأرض، وينهى عن ذلك بطريقتين:

أ. ينهاهم عن الفساد في الأرض مذكراً إياهم بصلاحها قبل إفسادها، وأن ما يحصل من ضرر في الأرض هو جزاء أعمالهم السيئة.

ب. ينهاهم عن الفساد أياً كان نوعه (وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

وإنما ذكر (في الأرض) لتصوير هذا الإسراف عند السامع وتعظيمه، وتقديم (في الأرض) للاهتمام، وهو يفيد زيادة تفظيع الإسراف فيها مع أهمية شأنها (ابن عاشور، 2002).

الاهتمام بمقدرات الأرض والمحافظة عليها:

ويلمح هنا أن الأرض التي هي ظرف المعاش ومصدر الخيرات ينبغي أن يحافظ على مقدارتها، وأن يحسن الإنسان استغلال عطائها بالصلاح لا بالإفساد، وهذا من عمارة الكون، وقد أشار سيدنا صالح –عليه السلام– إلى ذلك حين خاطب قومه: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ }(هود:61)، والصلاح الذي يذكر به سيدنا شعيب –عليه السلام– هو تهيئة الأرض بأقواتها وخيراتها للإنسان، وقد أشار القرآن إلى ذلك: { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ }(فصلت: 10) وقال الله تعالى: { وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ {20} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ }(الحج: 19– 21).

وقال الله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } (الأعراف: 10).

فالأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع، والمطلوب أن لا يتدخل الإنسان في إفساد ذلك كله بإهلاك الحرث والنسل، وهذه هي المسؤولية التي تقوم على كاهله، وإلا فإن ما يحصل من خلل ونقص في عمارتها يكون بسببه، وتقع اللائمة عليه قال الله – تعالى–: { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } (الروم: 41).

معنى الإصلاح في الأرض:

ومن معاني الإصلاح في الأرض حسبما يفهم من قصة سيدنا شعيب –عليه السلام – في القرآن: العدل في الأرض، فقد نُصب فيها الميزان، وإن الذي صنعه قوم شعيب – عليه السلام – كان إفساداً بتغييب قيمة العدل في الوزن والكيل،

والمعنى في قوله تعالى(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا) (الأعراف: 85): (لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ببعث الرسل والأمر بالعدل) (البغوي، 1997).

ويظهر أن الإصلاح يعم ذلك كله، إذ (النهي في هذه الآية عن الفساد في الأرض بعد إصلاحها أعم من البخس؛ لشموله الأموال والأعراض والنفوس، وكل ما يوجب مفسدة دينية أو دنيوية، وهذا خير لهم في الإنسانية وحسن الأحدوثة وزيادة البركة؛لرغبة الناس في متاجرتهم عن اشتهارهم بالأمانة والديانة) (النيسابوري، 1969م).

ويلحظ أن سيدنا شعيب – عليه السلام– نهاهم عن الفساد في الأرض، أي:عن أصل الفعل، ونهاهم كذلك عن المبالغة فيه، قال الله تعالى: {وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (هود: 85)، والعيث: أشد الفساد، وقد نهوا هنا عن التمادي في الفساد (النسفي، 2008).

ومعنى مفسدين أيضاً: قاصدين الفساد (النسفي، 2008).

وإنما قيده بالحال؛ لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر – عليه السلام – الغلام، وخرقه السفينة) (البيضاوي، 1988).

الفرع الثاني: الحث على الإصلاح في الأرض حسب الاستطاعة

استشعارا لحجم المسؤولية في بناء المجتمع وصلاحه، وبذل الوسع والجهد والطاقة في ذلك، يرشد سيدنا شعيب –عليه السلام – إلى ضرورة بناء المجتمع وإصلاحه، فهو يضع قومه أمام مسؤولياتهم تجاه هذا الإصلاح، وقد ظهر هذا الأمر فيما يلي:

أ– يحدد سيدنا شعيب –عليه السلام – لهم هدف الإصلاح وغايته، ويبين لهم وسيلته وظروفه، قال الله –تعالى–: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (هود: 88).

فيظهر لهم أن الإصلاح في المجتمع غاية تخدم الفرد والمجتمع، وتسعى لصالح الإنسانية.

ب– يبين لهم أن الإصلاح على وفق الإمكانات والاستطاعة والقدرات الإنسانية، وأنه بالمقدور والإمكان، وأنه قائم على الاعتماد على الله –تعالى– والتوكل عليه.

ج–يوضح سيدنا شعيب –عليه السلام – لقومه أن الإصلاح لا بد أن تتطابق فيه الفكرة مع العمل والتطبيق قال الله تعالى:(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)، أي: (ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه) (البغوي، 1997).

ويشعر قوله تعالى: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) إلى ضرورة الالتزام بالمبدأ، وهو مطابقة القول العمل، والمعنى:(ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم، وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما إلى جزأين:التعظيم لأمر الله –تعالى–، والشفقة على خلق الله – تعالى–) (الرازي، 1981).

ويؤخذ من توجيه سيدنا شعيب –عليه السلام– لقومه هنا جملة أمور، أهمها:

1–أن الإصلاح يكون على وفق الوسع والطاقة والمدة الزمنية أيضاً، وهو ما يستوحى من قوله تعالى: {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ } (هود: 88). والمعنى: (مدة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً، أو المقدار الذي استطعت منه، أو ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه) "(الرازي، 1981)، مع الأخذ بالاعتبار أن (الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة) (القرطبي، 1966).

2–أن هذا الإصلاح هو إصلاح عام لمرافق الحياة وشؤونها، وهذه الأجوبة الثلاثة–وهي:عدم المخالفة عما ينهاهم عنه، وإرادة الإصلاح حسب الاستطاعة، وكون توفيقه بالله تعالى– والإرشادات التي وجهها سيدنا شعيب – عليه السلام – لقومه فيها فوائد وتنبيهات كثيرة؛ (حيث تنبه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة: أهمها وأعلاها حق الله– تعالى–، وثانيها:حق النفس، وثالثها: حق الناس) (البيضاوي، 1988).

3–أن الإصلاح لا يكون بمجرد النقد والمخالفة، إذ لم تكن غاية سيدنا شعيب –عليه السلام– مجرد المخالفة، بل لمقصد مهم وهو إرادة الإصلاح، (وفي هذا ما يدل على أن المنتقدين قسمان: قسم ينتقد الشيء ويقف عند حدود النقد، دون ارتقاء إلى بيان ما يصلح المنقود، وقسم ينتقد ليبين وجه الخطأ ثم يعقبه ببيان ما يصلح خطأه) (ابن عاشور، 2000).

4–إصلاح المجتمع يقوم على الإخلاص والحلم والرشد ووفور العقل، ولا يقوم على التهور أو التسرع، بل لا بد من الروية، وحسن التدبير في شؤون الأحوال، وتكاتف جهود أفراد المجتمع؛ لأن مآل الإصلاح يعود بالنفع على المجتمع كله.

المبحث الثالث

البناء الفكري للإنسان

تعرض قصة سيدنا شعيب – عليه السلام – في القرآن الكريم إلى جوانب فكرية عميقة، تظهر لدى التأمل وإنعام النظر، فهي ترشد إلى حسن التعقل وقراءة الواقع والنظر في

التاريخ، وتوجه إلى لون من ألوان احترام حرية الآخرين وحقوقهم الفكرية، وهذا تفصيل لهذه الجوانب.

المطلب الأول: حسن التعقل والتبصر في الأحوال والواقع، وفهم التاريخ وحسن تحليله

قال الله تعالى: {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ} (هود:84).

وقال الله تعالى: {وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} (الأعراف: 86).

وقال الله تعالى: { وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} (هود: 89- 90)

في هذه الآيات ترى أن سيدنا شعيبا –عليه الصلاة والسلام – ينبه قومه إلى حقائق ووقائع، تستدعي منهم العبرة والنظر، فالواقع أنهم في سعة وفي ثراء ورغدٍ من العيش، فليس هناك فاقة أو كارثة إنسانية حلت بهم، ولكن أعمالهم وإصرارهم على ما سبق بيانه والإشارة إليه، من انحراف في المعتقد وزيغٍ في العمل والمعاملة، وسوء في السلوك يستجلب عليهم نقمة أصابت من قبلهم، وهذا من جملة سنن الله –تعالى– في الحياة، {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } (الفتح: 23)، { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } (الأحزاب 62). {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } (فاطر 43).

ولبيان أهمية حسن التعقل والتبصر في أحوال الأمم السابقة، فقد عرض القرآن له بطريقتين:

الطريقة الأولى: الإرشاد المباشر؛ حيث يلفت النظر إلى ضرورة الاعتبار بما حل بالأمم السابقة.

الطريقة الثانية: من خلال قصص القرآن، حيث يلفت الأنبياء أنظار قومهم إلى الاعتبار بما حل بالأمم السابقة، ومن ذلك قصة سيدنا شعيب–عليه السلام– مع قومه، وهذا بيان لهتين الطريقتين:

الفرع الأول: إرشاد القرآن المباشر إلى لفت النظر إلى الاعتبار بأحوال الأمم السابقة

لفت القرآن النظر إلى الأحوال السابقة للأمم، ووجه إلى أخذ العبرة بمزيد من التفكر والبحث والسير في الأرض، قال الله تعالى: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }(الأنعام: 11) وقال الله تعالى: { قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ }(آل عمران: 137)، وهذه الآيات تحث على فهم تاريخ الأمم والنظر في أحوالها، وعلم التاريخ (يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، وهو يحتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق) (ابن خلدون، 1993).

ويلاحظ أن القرآن الكريم حين يلفت النظر إلى القيم التاريخية، يرشد العقل إلى دراسة السياقات التاريخية في إطار ديني وفي ضوء العقيدة، ومن هنا فإن التحليل في الآثار وفق الرؤية الإسلامية يختلف عن تحليله وفق الرؤية الغربية، (ففي علم الآثار نجد – بحكم النشأة الأوروبية لهذا العلم – ثمت اهتماماً بالجوانب الحسية، والعناصر التوثيقية والأبعاد الفنية لدى الباحث الغربي، أكثر من الاهتمام بالخلفيات العقدية أو الأبعاد القيمية التي ينطوي عليها الأثر، لذلك كثيراً ما يعتمد الباحثون الغربيون في هذا المجال على المنهج الوصفي، فيما لا يسع الباحث الذي يصدر عن رؤية إسلامية إلا أن يهتم بما يختزنه الأثر من معان ودلالات، ولا يكتفي بالوصف.

فالوقوف على آثار الملوك والحضارات أو الامبراطوريات، وما يتخللها منه إيمان ودلالات، واستقامة وانحراف، وعدل وطغيان، وصعود أو هبوط، يفرض الاستعانة بمنهج التحليل الثقافي، الذي يمكن من خلاله الكشف عن طبيعة الممارسات وحقيقة الظواهر ومنحى السير، وهذا هو منهج القرآن وهو يعرض لحال الجماعات الغابرة) (القرشي، 1429هـ).

وهذا يسهم في تأصيل علم الآثار، ودراسة الظواهر التاريخية باتصالها بالنسق الاجتماعي والجانب الديني.

الفرع الثاني: دعوة سيدنا شعيب – عليه السلام– قومه للاعتبار بما حل بالأمم السابقة

لفت سيدنا شعيب– عليه السلام– نظر قومه إلى أخذ العبرة بما حل بالأمم قبلهم، ونبه إلى ضرورة التبصرة في سنن الله تعالى فيمن سبقهم، قال الله تعالى: { وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }(هود: 89- 90)

والمعنى:لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب إياكم كما

أصاب من كان قبلكم، وقيل معناه لا يحملنكم شقاقي، والشقاق العداوة (أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق، (أو قوم هود) من الريح(أو قوم صالح) من الصيحة) (الشوكاني، 1999).

وإذا كان سيدنا شعيب – عليه السلام– قد ركز على ضرورة الاعتبار بما حل بالأمم الغابرة، فإنه نبه إلى الاعتبار بما حل بالأمم قريبة العهد بهم، قال الله تعالى: (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) (هود: 89– 90) ويحتمل أن يكون القصد بعد المكان أو بعد الزمان، وقد يكون المعنى: ليس ببعيد في السبب الموجب للعذاب، وهو مطلق الكفر (الشوكاني، 1999).

ومن سنن الله تعالى أن يقبل توبة التائب واستغفار النادم، وهذا ما أرشد إليه سيدنا شعيب –عليه الصلاة والسلام– دفعاً لليأس عن قومه.

قال الله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} (هود: 90)، (وهذا وعد قفى به على الوعيد الذي قبله، وفي الآية بيان بأن الندم على فعل الفساد والظلم بالتوبة والاستغفار من أسباب خيري الدنيا والآخرة) (رضا، 2002).

المطلب الثاني: احترام حقوق الآخرين الفكرية وحفظها

لفتت قصة سيدنا شعيب – عليه السلام – النظر إلى احترام الحقوق المتعلقة بالفكر الإنساني، ونبهت إلى الابتعاد عن الحجر على الناس طريق الهداية والحق، ووجهت إلى أن ذلك اعتداء غير مشروع وطريق غير سليم، وأنه لا بد أن يفسح المجال أمام العقل الإنساني ليختار الطريق الأمثل والسبيل الأرشد.

قال الله –تعالى–: {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ {86} وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {87} قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ {88} قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } (الأعراف: 86– 89).

في هذه الآيات الكريمة يرشد سيدنا شعيب – عليه السلام – إلى عدم اعتراض حرية الآخرين في التفكير، وأوضح أن من حق الإنسان اختيار طريق الهداية، وفيما يلي تفصيل لتوجيهات سيدنا شعيب–عليه السلام– لقومه في احترام الحقوق الفكرية للآخرين:

الفرع الأول: التحذير من السلوكيات السلبية في التعرض لحقوق الآخرين فكريا

حذر سيدنا شعيب –عليه السلام– من سلوكين سلبيين بدرا من قومه؛ هما:

1– قطع الطريق على الناس لأخذ أموالهم جبراً عنهم.

2– قطع طريق الهداية على من يريد اختيارها، فهما طريقان:حسي ومعنوي، فقد نهاهم سيدنا شعيب – عليه السلام– عن قطع هذين الطريقين بقوله {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} (الأعراف:86) (أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، أو: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب– عليه السلام– ليتبعوه، والأول أظهر؛ لأنه قال (بكل صراط) وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله {وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة) (ابن كثير، 1987).

والظاهر النهي عن القعود بكل طريق لهم عما كانوا يفعلونه، من إيعاد الناس وصدهم عن طريق الدين (أبو حيان، 2001). وقيل: بكل طريق من طرق الدين (البيضاوي، 1988).

والذي يبدو أنهم ما تركوا طريقاً من طرق الخير إلا ويصدون عنه، وأعلاه طريق الهداية والإيمان، فالمراد بالصراط: (الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب – عليه السلام – والقعود مستعمل كناية عن لازمه، وهو الملازمة والاستقرار) (ابن عاشور، 2000)، والقعود بكل صراط فيه معنى التقصد والاستمرار، حيث نهوا أن يفعلوا فعل فعل المترصد المقبل بكليته بكل صراط، أي طريق من طرق الدنيا والدين، من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمحكم والمتشابه والأمثال (البقاعي، 2002).

الفرع الثاني: فوائد من إرشاد سيدنا شعيب–عليه السلام– لقومه في احترام حقوق الآخرين

ثمة فوائد يمكن استنباطهاواستنتاجها من خلال موقف سيدنا شعيب –عليه السلام– في توجيه قومه لاحترام حقوق الآخرين، منها:

أ– يؤخذ من قوله تعالى: {وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا } النهي عن إلقاء الشكوك والشبهات؛ فقد حذر سيدنا شعيب–عليه السلام– قومه من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة:

1– القعود بكل صراط لاعتراض الدعوة إلى الله تعالى،

ومعنى ذلك الملازمة والإصرار.

2- الصد عن سبيل الله تعالى.

3- إلقاء الشكوك والشبهات في سبيل الدعوة إلى توحيد الله تعالى، (وإذا تأملت علمت أن أحداً لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاث) (الرازي، 1981).

ب- يفهم كذلك أن محاولات الحجر على العقول لسلوك طريق الهداية صادرة عن جهل، وأن ذلك ضيق في الأفق الفكري، وأن مدارك أصحابه غير متسعة لاستيعاب آراء الآخرين، وأن هذا التعدي الفكري لا يتفق مع المنطق الصحيح، ولهذا قال قوم شعيب-عليه السلام- رداً لهذه التبصرة وهذا التوجيه الصادر عن سيدنا شعيب – عليه السلام-{ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا }(الأعراف: 88).

ج-ويلاحظ هنا أن الاحتمالات والخيارات التي قدمها ضيقوا الأفق من قوم شعيب – عليه السلام – إما الخروج من القرية، أي النفي من الأرض بطريقة القسر والجبر، وقولهم (قريتنا) وكأنه ليس له حق في أرضه، وأن مكثه فيها رهن إشارتهم ووفق أهوائهم، وإما أن يسير وفق ما يريدون بالبقاء على تصورهم ومعتقدهم، وبذلك يتعطل الاختيار ويغيب دور التعقل وحرية التفكير، وليس في جميع الاحتمالات والخيارات أي طريق من طرق النقاش أو تقبل الآراء، وهذا أمر يتقاطع مع الحقوق الفكرية للآخرين.

د- وعلى هذا فإن الإكراه الفكري لا يمكن أن يكون سبيلاً للإقناع، أو وسيلة للتأثير في القلب، وهذا يتضح من خلال رد سيدنا شعيب – عليه السلام -: {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } قال القاسمي: (أي: أتجبروننا على ذلك وإن كنا كارهين له؟ مع أنه لا فائدة في الإكراه، لأن دينكم إن كان حقاً، لم نكن بالإكراه منقادين له، وإن كان باطلاً لم نكن بالإكراه متصفين به، لأنه بالحقيقة صفة القلب، ولا يسري إكراهكم إليه، وكيف لا نكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم) (القاسمي، 1978).

الفرع الثالث: قيمة الحوار في إبراز مهارات الاتصال وإقناع المخاطب والتأثير في الآخرين، وتجنب المغالطات في الحوار

أبرزت قصة سيدنا شعيب – عليه السلام – قيمة الحوار في إبراز مهارات الاتصال وإقناع المخاطب والتأثير في الآخرين، وتجنب المغالطات في الحوار، ويمكن بيان ذلك بما يلي:

أ- يشير قوله تعالى: (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ) -بالإضافة إلى ما سبق بيانه- إلى تحديد الهدف من الخطاب والمحاورة، وأن الهدف من ذلك شأن محمود، وأمر له أثر إيجابي على المخاطب، والحوار الإيجابي: (هو الحوار الذي تسوده المحبة والمسؤولية والرعاية وإنكار الذات، وإثبات الآخرين، وإعطاء الفرص) (خوجة، 2008)، والحوار يساعد على (اكتساب مهارات الاتصال والتواصل والتفاعل، خاصة مهارات الحديث والكلام والتعبير وإدارة الحوار) (زيتون، 1997).

ب- يشير قوله تعالى: { قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا} إلى المغالطات التي وقع فيها الذين ظلموا من قومه، وأنهم لجأوا إلى التجريح في العبارة، والسفسطة والابتعاد عن مبدأ الحوار ومساره الصحيح، تهويشاً وإبعاداً عن مواجهة المنطق بالمنطق والحجة بالحجة، فلم يكن من جهتهم أدب الحوار اللائق، ولا سمت المناقشة الهادئة الهادفة، فقد افتقر جوابهم إلى أخلاقيات الحوار أو عرض للدليل، ولم يكن ردهم على سيدنا شعيب- عليه السلام- لعدم فهمهم ما يقول؛ بل في قولهم مغالطة وتعنت والمعنى:(أنك تقول ما لا نصدق به، وهذا مقدمة لإدانته واستحقاقه الذم والعقاب عندهم) (ابن عاشور، 2000).

ج- أما ما كان من أمر سيدنا شعيب -عليه السلام-، فترى حسن عرض في الخطاب، وتقسيما للأمور، وعارضة في الانتقال من موضوع إلى آخر، وتلوينا في الخطاب، واستعمالا للأساليب المؤثرة في الإقناع، مما يشكل مثالاً وأنموذجاً في أخلاقيات الحوار وأدبياته.

وفي هذا تنمية للفكر، وارتقاء بأساليب الخطاب، وتوجيه لحسن معالجة الأمور، وتجنب لآفات الحوار من انتقاص لقدر المخاطب، أو عدم الالتفات إليه، أو الخوض في غير مسار الحوار، ويلحظ كذلك أن ثمة آدابا للبحث والمناظرة، وخصائص للمحاور لا بد من توفرها، إذ (المحاور الذي يعرف ما يريد تجده في محاورته يتدرج في نقاط، حتى يصل إلى حقيقة يسعى إليها، وتكون مقنعة ومفحمة لمن يحاوره، حتى ولو لم يستفد منها محاوره، فقد يستفيد منها المستمعون لهذا الحوار) (المغامسي، 2008).

وعلى هذا، فإن المحاور ينبغي له أن يحسن عرض أفكاره وأدلته، مع ملاحظة (أن لا يكون حشده للمعلومات والأدلة لمجرد تقوية رأيه والانتصار على خصمه، وإنما يكون ذلك ذريعة لمعرفة الحق والوصول إليه) (الحمد، 2010).

وهكذا تبرز القيم الحضارية في البناء الفكري للإنسان من خلال هذه القصة القرآنية الكريمة؛ حيث روعي فيها الاهتمام بتنمية التفكير، والإرشاد إلى استعمال أدواته، والحث على فهم السنن الكونية والتبصر بالتاريخ وتعقله، وملاحظة التجارب

الإنسانية السابقة؛ للاستفادة منها في الواقع، مع التركيز على احترام حقوق الآخرين فكريا واجتماعيا، مما يشكل دعامة من دعائم نمو المجتمعات واستمرارها، بالإضافة إلى تنمية مهارات الحوار بأدبياته ووسائله وأهدافه البنّاءة.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فبعد هذا العرض للمادة العلمية في هذا الجهد العلمي، أود أن أذكر أبرز نتائج هذا البحث.

1- أبرزت قصة سيدنا شعيب – عليه السلام- في القرآن قيما حضارية متعددة، واشتملت على قواعد رشيدة ومبادئ سديدة في الجانب السلوكي والإنساني، بأسلوب ظهرت فيه المعاني العميقة والدلالات القويمة في هذا الإطار.

2- ركزت قصة سيدنا-شعيب عليه السلام- في القرآن على تقويم الخلل الاقتصادي، وما يتعلق في التصرف المالي للإنسان في البيع والشراء والقضايا المادية، التي لها أثرها وانعكاساتها الإنسانية والاجتماعية.

3- بينت قصة سيدنا-شعيب عليه السلام- في القرآن ضرورة وضع الحلول المناسبة للمشكلات في حياة الناس، بما لا يتقاطع مع حقوق الإنسان المادية والمعنوية.

4- لفتت قصة سيدنا-شعيب عليه السلام- في القرآن النظر إلى أن التوجيه القرآني لا يريد للحياة أن تسير وفق الأمور المادية المجردة بعيدا عن منزعها الإيماني والاجتماعي، بل لابد من المزاوجة بين النظرة المعنوية والنظرة المادية في تقدير الأمور، ونوهت قصة سيدنا شعيب -عليه السلام – إلى أهمية الجانب الإيماني في الفكرة الاقتصادية، وربطت بين مفهوم النظرة الإيمانية والنظرة المادية في القيم الاقتصادية.

5- يؤخذ من قصة سيدنا-شعيب عليه السلام- في القرآن تصحيح المفاهيم المخطوءة التي لم تقم على نظرة صحيحة سوية للأشياء، فقوم شعيب -عليه السلام- كان في حسبانهم أن الخسران مرتبط بالبيع والشراء والأمور المادية، ولكن القرآن بين خطأهم في ذلك، وبين أن تكذيبهم لشعيب-عليه السلام- هو الخسران، قال الله تعالى: { الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ } (الأعراف: 92).

6-إن الاتجاه المادي، والإغراق في النظرة الاقتصادية للأشياء حين تتملك الإنسان تجعله لا يقيس إلا على وفقها، ولا يرى إلا بمنظارها، ولا يتحدث إلا بمنطقها، وقد كشفت القصة القرآنية هنا أن مصطلح الربح والخسارة المادية الصرفة إذا أسقطت منه الحسابات الإنسانية، وجرد من القيم الرفيعة، لا يكون في خدمة البشرية أو صالح الإنسانية.

7- وجهت القصة القرآنية هنا إلى المسؤولية الإنسانية للفرد والمجتمع إزاء عمارة الكون، والتعامل مع مقدراته، وإلى الإصلاح فيه والعمل لخير المجتمعات، وقد ظهر هذا التوجيه فيما يلي:

أ- أن على الإنسان أن يستغل عطاء الأرض بالإصلاح لا بالفساد.

ب- أن المطلوب من الإنسان أن لا يقوم بإفساد الأرض بإهلاك الحرث والنسل.

ج- من معاني الإصلاح في الأرض حسبما يفهم من القصة القرآنية موضوع البحث العدل في الأرض، وما صنعه قوم شعيب -عليه السلام- كان إفسادا بتغييب قيمة العدل في الوزن والكيل، فقد أفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل.

د- النهي عن كل ما يوجب مفسدة دنيوية أو دينية.

8- ترشد قصة سيدنا-شعيب عليه السلام- في القرآن إلى ضرورة بناء المجتمع وإصلاحه، وقد تمثل هذا الإرشاد في ما يلي:

أ- وضع سيدنا شعيب- عليه السلام- قومه أمام مسؤولياتهم تجاه هذا الإصلاح، محددا لهم هدفه وغاياته، وبين لهم وسيلته وظروفه.

ب- أشار إلى أن الإصلاح في المجتمع غاية تخدم الفرد والمجتمع، وتسعى لصالح الإنسانية.

ج- إن الإصلاح يكون على وفق الإمكانات والاستطاعة والقدرات الإنسانية، وأنه قائم على الاعتماد على الله -تعالى- والتوكل عليه.

د- الإصلاح لابد أن تتطابق فيه الفكرة مع العمل، ضمن الوقت والمدة الزمنية المتاحين، وأنه يشمل مرافق الحياة وشؤونها، ولا بد فيه من الإخلاص والحلم والرشد ووفور العقل، فهو لا يقوم على التهور أو التسرع، بل لابد فيه من الروية وحسن التدبير وتكاتف جهود المجتمع؛ لأن الإصلاح يعود بالنفع على المجتمع كله.

9- برز في قصة سيدنا شعيب -عليه السلام- في القرآن قيما حضارية في البناء الفكري للإنسان، وقد تمثل ذلك في ما يلي:

أ- حسن التعقل والتبصر في الأحوال وقراءة الواقع، وفهم التاريخ وحسن تحليله، وفهم سنن الله في الكون والنظر في أحوال الأمم السابقة، والسير في الأرض والبحث والتفكير، لأخذ العبرة مما حصل للأمم السابقة.

ب- التنبيه إلى احترام حقوق الآخرين الفكرية وحفظها، والحق الإنساني في اختيار طريق الهداية وعدم الصد عنه،

وعدم إلقاء الشكوك والشبهات في طريق الخير، وعدم الحجر على العقول لسلوك طريق الهداية.

ج- الإشارة إلى أن الإكراه الفكري لا يمكن أن يكون سبيلا للإقناع أو وسيلة للتأثير في القلوب.

د- برزت في هذه القصة القرآنية الكريمة قيمة الحوار وأهميته في إبراز مهارا ت الاتصال وإقناع المخاطب، وقد ظهر في هذه القصة القرآنية:

- أن الهدف من الحوار والخطاب هدف محمود له آثار إيجابية على المخاطب.

- أن الحوار لابد له من جماليات وأخلاقيات يتمتع بها المحاور؛ من حيث الأسلوب والتنويع في عرض الخطاب، والبعد عن المغالطات الفكرية فيه، مما يثري في تنمية الفكر وحسن معالجة الأمور والارتقاء بأساليب الخطاب.

وبعد، فهذا جهد مقل، والله أسأل أن يبارك في هذا الجهد، وأن يتقبله سبحانه بمنه وكرمه وفضله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

الألوسي، م. (2005) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1 بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج12، ص115- 116 بتصرف.ج: 4، ص337.

البغوي، ح. (1997) معالم التنزيل، ط4 دار طيبة للنشر والتوزيع.ج: 3، ص256، ج4، ص 196.

البقاعي، ع. (2002) نظم الدرر، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية.ج 3، ص 67.

البيضاوي، م. (1988) أنوار التنزيل، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية. ج1، ص330- 331 ج3، ص255، ج3، ص39.

ابن جزي، م. (1973) التسهيل لعلوم التنزيل، ط2 بيروت: دار الكتاب العربي.ج:1، ص110

الحمد، م. (2010) الحوار في السيرة النبوية، ط2 الرياض: رابطة العالم الإسلامي،ص62-63.

أبو حيان، م. (2001) البحر المحيط، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية، ج4، ص274، ج4، ص274، ج4، ص 279، ج4، ص 275.

الخضر، ز. (2011) أسلوب المقابلة، في سورة الرحمن وأثره في المعنى، بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، المجلد السابع، العدد (1/ب)، ص76.

ابن خلدون، ع. (1993) مقدمة ابن خلدون، ط1 بيروت: دار إحياء التراث العربي. ص 8.

خوجة، م، (2008)الحوار: آدابه ومنطلقاته وتربية الأبناء عليه، ط5 الرياض:مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني. ص31.

الرازي، ع. (1981) مفاتيح الغيب، ط1، بيروت: دار الفكر.ج:14، ص142، ج 9، ص43، ج18، ص 35، ج14، ص184، ج18، ص38، ج18، ص38، ج 14، ص 143.

الراغب الأصفهاني، (2004) معجم مفردات ألفاظ القرآن: ضبط: إبراهيم شمس الدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، ص166.

رضا، م. (2002) تفسير المنار، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، ط1 بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج8، ص488- 489، ج12، ص 115، ج 12، ص 117، ج 12، ص118- 119.

الز مخشري، م. (1997) الكشاف، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1 بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج2، ص 394، ج2، ص399، ج2، ص 399.

زيتون، ع. (1995)أساليب التدريس الجامعي، ط1 عمان:دار الشروق. ص182

أبو السعود، م. (1994) إرشاد العقل السليم، ط4 بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج3، ص247، ج4، ص232، ج4، ص236.

السمين الحلبي، أ. (1993) عمدة الحفاظ:تحقيق: محمد التونجي، ط1بيروت: عالم الكتب. ج2، ص 470.

ابن سيده، (1996)المخصص، ط1 بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج1، ص102.

السيوطي، ج. (1995) تفسير الجلالين، ط2 بيروت:مؤسسة الرسالة.ص296.

الشربيني، م. (2004)السراج المنير، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.ج:2، ص 59، ج1، ص391.

الشعراوي، م(1991) تفسير الشعراوي، أخبار اليوم-قطاع الثقافة. ص 3053.، ج11، ص6617-6618، ج7، ص4248.

الشوكاني، م. (1999) فتح القدير، ط1 بيروت: دار الكتاب العربي.ج:3، ص519-520، ج3، ص519-520.

الطبري، م. (2000) جامع البيان، ط1مؤسسة الرسالة، بيروت.ج:15، ص 449، ج15، ص 449، ج15، ص450.

عباس، ف. (1987) القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته، ط1 عمان: دار الفرقان. ص220.

ابن عجيبة، (2000) البحر المديد، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، ج3، ص 319.

ابن عاشور، م. (2000) التحرير والتنوير، ط1 بيروت: مؤسسة التاريخ العربي. ج8، ص 188، ج11، ص311، ج8، ص202، ج4، ص 260، ج 7، ص 261، ج8، ص190، ج 11، ص 318.

ابن العربي، م. (2008) أحكام القرآن، ط4 بيروت: دار الكتب العلمية.ج: 2، ص788.
القاسمي، م. (1978) محاسن التأويل، ط2 بيروت:دار الفكر. ج7، ص209.
القرشي، ع. (1429هـ) توطين العلوم في الجامعات العربية والإسلامية، كتاب الأمة، قطر السنة 28، العدد 125، ص110.
القرطبي، م. (1966) الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج5، ص 86، ج5، ص87، ج5، ص90.
قطب، س(1971) في ظلال القرآن، ط7 بيروت:، دار إحياء التراث العربي.ج:4، ص 611.
ابن كثير، إ. (1994) تفسير القرآن العظيم، الطبعة الجديدة دار الفكر. ج2، ص283.
المغامسي، خ. (2008) الحوار: آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، ط5 الرياض: مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني. ص173.
النسفي، ع. (2008) مدارك التنزيل، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.ج:1، ص 581. ج 1، ص581، ج1، ص 582، ج1، ص582.
النيسابوري (1969)غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية. ج3، ص 285.

The Values of Cirilization in the Story of Sho’aib

Zakarya Ali Al-Kheder*

ABSTRACT

This research aims to exploring the values of civilization through the story of Sho'aib (pbuh) in the glorious Qur'an.

The researcher discussed several values of civilization in the economic, intellectual, and human fields. It also studied their effects on the construction of society.

Sho'aib's story showed some important issues in the life of individuals and society, and it pointed to some human and behavior problems. In addition, the story manipulated their weak points so as to upgrade the moral, social, and human sides.

Keywords: The Values of Civilization, The Story of Sho'aib (Pbuh), Conceptions, Economical Values, Construction of Thought.

* Faculty of Shari’a and Islamic Studies, Yarmouk University, Jordan. Received on 5/11/2014 and Accepted for Publication on 24/3/2015.